التفكير اللغوي عند يونس بن حبيب و أثره في التقعيد اللغوي

Linguistic thinking of Yunus bin Habib and its impact on linguistic complexity

د . مجدي حسين أحمد شحادات

أستاذ مشارك في اللغة العربية

جامعة البلقاء التطبيقية

كلية اربد الجامعية، قسم اللغة العربية

E : Ma.fa@bau.edu.jo

تاريخ الإرسال: 2023/04/20	تاريخ القبول: 2023/05/21	تاريخ النشر:2023/06/01

Summary

This study deals with the intellectual impact that Yunus bin Habib presented on the linguistic activity of the Arabs in the period preceding the contracting phase، as the study was based from the beginning on limiting its interest in Yunus bin Habib، the human being. It examines his life، his elders، and his students to find out about his biography، perhaps illuminating for us some of his views and the nature of his ideas، and then the study sought to uncover his grammatical contributions، relying on our orphan source، a book that allowed us to consider some of his opinions، study them and trace their origins. The study presented the most important discussions between Yunus and Sibawayh. Sometimes they found them agreeing and at other times disagreeing. We also observed the same thing when comparing Yunus's views and ALkaleel's views. The study concluded in the end that Yunus bin Habib and his teacher Abu Amr bin Ala had formed an independent stream in Arabic grammar that relied more on hearing than analogy.

Keywords: linguistic complexity, measurement, grammar, listening

مُلخّص البحث

يَتناول هذَا الْبَحْث بِالدِّرَاسَة الْأَثَر الفكري الَّذِي تركه يونس بن حبيب في النشاط اللغوي عند العرب في فترة ما قبل التقعيد. إذ قامت الدراسة بداية على حصر اهتمامها بحياة يونس بن حبيب _ الإنسان العالم _ وشيوخه وتلاميذه؛ للوقف على سيرته لعلها تضيء بعض ما استُغلق من آرائه وطبيعة أفكاره، ثم سعت الدراسة للكشف عن إسهاماته النحوية، بالاعتماد على مصدرنا اليتيم وهو كتاب سيبويه الذي أتاح لنا النظر في بعض آرائه و دراستها وتتبع أصولها. وعرضت الدراسة لأهم المناقشات بين يونس وسيبويه، فتارة وجدنهما يتفقان وتارة أخرى يختلفان، كما لاحظنا الشيء ذاته عند مقارنة آراء يونس وآراء الخليل بن أحمد الفراهيدي. وخلصت الدراسة في النهاية إلى أن يونس بن حبيب وأستاذه أبو عمرو بن العلاء قد شكلا تياراً مستقلاً في النحو العربي يعتمد على السماع أكثر من القياس.

كلمات مفتاحية : التقعيد اللغوي، السماع ، القواعد ، القياس

1. المقدمة

لقد كان النشاط اللغوي عند العرب في الفترة التي سبقت مرحلة التقعيد هو العامل المهم في تكوين شخصية يونس اللغوية،إذ يشير التاريخ إلى فترة نشاط ثرية قامت حول النص القرآني وقراءاته آنذاك، مثلت لاحقا حلقة مهمة جدا في تارخ النحو العربي على يد الرعيل الأول ممن دفعوا عجلة الفكر؛ ليظهر على إثر ذلك النشاط بوجوه متعددة من العلوم التي خدمت القرآن ولغته بما يحقق الفهم الصحيح والدقيق لمعانيه ومرامها القريبة والبعيدة، فكل آية من القرآن تمثل شاهدا من شواهد التشريع أو آية من آيات الفتوى، تحتاج الحرص و العناية في فهمها و التعاطي معها، ويونس بن حبيب يعد من الرواد الأوائل الذي كان لهم الأثر والدور في توجيه تلك العلوم ومناهج بحثها، بالإضافة لدوره المرجعي عند من تلقوا عنه في أسناد رواياتهم والاحتجاج لأفكارهم، والانتصار لتأويلاتهم وتخريجاتهم.

لقد أجمع الدارسون الذين تصدّوا لدراسة تاريخ النحو العربي، على أن يونس بن حبيب علم من أعلام النحو في عصره، فهذا سيبويه إمام النحاة يورد آراء يونس من باب تقوية آرائه والاستدلال بصحتها أو من باب التصدي لرأي من الآراء التي يُحاجج بها، لذا يبقى يونس بن حبيب صاحب الجهد الوافر في الدراسات اللغوية ، لكنه لم يلق اهتماما كبيرا في مجال الدراسات لأنه لم يترك لنا مصنفا مستقلا يحمل اسمه و يجمع آراءه و يكشف فضله في تاريخ نحونا العربي .

و عليه تأتي هذه الدراسة لتسليط الضوء على جهد وافر يستحق المتابعة و البحث؛ لأنه جهد ينتمي لمرحلة التقعيد في طليعة التفكير اللغوي العربي و باكورة النشاط عندهم ، و قد اتبعت الدراسة منهجا استقرائيا وصفيا لتتبع نشاط يونس بن حبيب خلال الفترة الزمنية التي عاشها و التي جاءت بعده بقليل .

محاور الدراسة :

تمهيد في حياة يونس بن حبيب من مولده لمماته.

1. **بين يونس وسيبويه.**
2. **بين يونس بن حبيب والخليل بن أحمد الفراهيدي.**
3. **مذهب يونس بن حبيب في النحو.**

تمهيد:

يونس بن حبيب، من بلدة (جَبُّل) بالضم مع التشديد، وهي بلدة تقع على نهر دجلة بالعراق، في الجانب الشرقي منه(ابن خلكان،د.ت،ج547/3)[1]. يجمع أغالب الرواة على أن يونس بن حبيب كان أعجمي الأصل، ولهذا كان يعتز به دعاة الشعوبية ويعدونه مفخرة من مفاخرهم ، "وقال صاحب مفاخر العجم أنه أعجمي الأصل، ففخر بذلك".[2] واختلف الرواة في ولائه، فتارة يجعلونه مولى لنبي ضبة، وأخرى يجعلونه مولى لنبي ليث بن بكر، وطورا يقولون إنه مولى بلال بن هرمي، ويبدو الراجح أنه مولى بني ضبة، لتضافر معظم الروايات على ذلك.[3]

أما أسرته فلا يُعرف شيئاً عنها، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من العلماء، أمثال سيبويه والكسائي، والفراء، وكل الذي عُرف عن أسرته ذلك الخلاف الذي دار حول كلمة حبيب، هل هي اسم لأبيه، فتكون مصروفة، أو أنها اسم لأمه فتكون ممنوعة من الصرف، للعلمية والتأنيث.[4] وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ ميلاد يونس ، لكن أحمد مكي الأنصاري رجّح أن يكون قد وُلد سنة (80هـ).[5]

اسمه يونس، و قد اختُلف في كنيته ، فمن قائل: يكنى أبا عبد الرحمن، ومن قائل يكنى بأبي محمد، والأكثرون على أنه (أبو عبد الرحمن). و يبدو أن التاريخ يجهل نشأة يونس، فلا يكاد يحدثنا بشيء عن نشأته الباكرة، فقد رأيناه في البصرة متعلماً ومعلماً. درس يونس بن حبيب ما كان يدرسه أبناء عصره من العلوم الدينية، والأدبية، ولم تكن الدراسة على عهده ذات منهج

محدد أو خطة مرسومة، وإنما يدرس الإنسان ما يشاء من علوم العصر، ويأخذ منها ويدع كيفما تهيأ له، وحسبما تهديه ميوله ومواهبه. ولهذا قال الزبيدي: "في الطبقات: وكان النحو أغلب عليه،؟ وقال صاحب الوفيات: "وله قياس في النحو ومذاهب يتفرد بها".[6]

تلقى يونس النحو أول ما تلقاه بالبصرة على شيخه حماد بن سلمة.[7] وبعده لازم يونس بن حبيب أستاذه أبا عمرو بن العلاء حتى صار من أصحابه وكتُّابه.[8] ولازمه وأخذ عنه النحو والقراءة من قبلُ، ولهذا تأثر به، فكان لهما منهج موحد ، أو على الأقل كان لهما منهج متقارب، من بين المناهج النحوية المتباينة. و تتأرجح وفاته بين المؤرخين ، لكن محمد مكي الأنصاري يرى أن وفاته كانت سنة 182هـ، وذلك لورودها عند ابن خليكان وهو شيخ المحققين.[9]

آثاره النحوية:

مما يؤسف له أن آثار يونس قد عدت عليها صروف الزمان، فلم يصل إلينا منها أي أثر من آثاره مع كثرتها، فذكر ياقوت الحموي في ترجمته: "ومن تصانيفه كتاب معاني القرآن الكبير، وكتاب معاني القرآن الصغير، وكتاب اللغات، وكتاب النوادر، وكتاب الأمثال".[10] وقد جعل له ابن النديم كتابين في النوادر: الصغير والكبير، وأما صاحب الوفيات فقد ذكر له النوادر الصغير ولم يذكر الكبير ولعله من قبيل الإيجاز.[11] وذكر بروكلمان كتابا ليونس بن حبيب باسم: كتاب القياس في النحو، غير أنه لم يصل.[12]

2. بين يونس وسيبويه:

من آراء يونس النحوية التي استحسنها سيبويه في الكتاب جواز إلغاء (إذن) حين تقع بعد حرف عطف كالفاء أو الواو مثلاً وبناء على هذا يجوز في المضارع الرفع في الإلغاء، قال سيبويه: "وهذا قول يونس وهو حسن"،[13] كما يجوز فيه النصب على الإعمال، وإليك نص ما جاء في الكتاب: قال سيبويه: "هذا باب إذن"،[14] وتقول إن تأتني آتك وإذن أكرمك،[15] وإذا جعلت الكلام على أوله ولم تقطعه، وعطفت على الأول، وإن جعلته مستقبلاً نصبت، وإن شئت رفعت على قول من ألغى، وهذا قول يونس، وهو حسن، لأنك إذا قطعته من الأول فهو بمنزلة قولك فإذن أفعل[16] ، وإذا كنت مجيباً رجلا".[17] ولتوضيح عبارة سيبويه، يمكن تلخيصها في أن الفعل المضارع (أكرمك) يجوز فيه ثلاثة أوجه:

1- الجزم عطفاً على الفعل السابق (آتك).
2- النصب بإذن على الإعمال.

3- الرفع على الإلغاء، وهو قول يونس، واستحسنه سيبويه.

قال يونس: إن (أحوى) تصغر على (أحيٌّ) وتكون ممنوعة من الصرف قياسا على كلمة (أحمر) وأمثالها، وخالفه في ذلك عيسى بن عمر فقال إنها تصغر على (أحيٌّ) ولكنها تصرف فيدخلها التنوين، كما خالفه أيضا أبو عمرو بن العلاء فقال: إنها (أحيٍّ) بياء مشددة مكسورة منونة، ويبدو أنه يريد أن يعاملها معاملة المنقوص مثل (قاضٍ). ثم جاء سيبويه فوزان بين هذه الآراء الثلاثة لهؤلاء الأقطاب الأفذاذ، فحكم ليونس وفضله على صاحبيه بعد أن ناقش رأي أبي عمرو مناقشة علمية هادفة، وأبان أنه مخالف للقياس في (عطاء وسقاية) وغيرهما من الكلمات، يقول "أما عيسى فكان يقول: أحيٌّ، ويصرف وهذا خطأ"،[18] ووصف سيبويه رأي يونس بأنه هو القياس، وهو الصواب.[19]

ومن الأقيسة التي تفرد بها يونس بن حبيب قياس العرض والتحضيض على نظير لهما وهو الاستفهام ... فيأخذ كل منهما نفس الحكم الذي يأخذه الاستفهام، من حيث دخول نون التوكيد على الفعل بعد جوازه، وهو قياس موفق إلى حد كبير، ولهذا قال عنه سيبويه: وهذا أقرب، وهذا نص سيبويه بالتفصيل: "هذا باب النون الثقيلة والخفيفة[20]، ثم قال: "ومن مواضعها الأفعال غير الواجبة التي تكون بعد حروف الاستفهام، فصارت بمنزلة أفعال الأمر والنهي، فإن شئت أقحمت النون، وإن شئت تركت كما فعلت ذلك في الأمر والنهي، قال الأعشى: **فهل يمنعني ارتيادي البلا دَ من حذر الموت أن يأتين**[21]

ثم قال سيبويه: "وزعم يونس أنك تقول: هلا تقولنّ وألا تقولنّ وهذا أقرب، لأنك تعرض، وكأنك قلت: افعل، لأنه استفهام فيه معنى العرض.[22] والعرض هنا معناه الطلب، فإذا كان طلبا فيه شدة سمي تحضيضاً، وإن كان فيه لين ورفق سمي عرضا في اصطلاح النحويين المتأخرين الذين فرقوا بين الأداتين هلا وألا بينما نرى سيبويه في هذا النص يأتي بهما في قرن واحد، ثم يطلق عليهما معا لفظ العرض،[23] دون تفرقة بينهما. والذي يعنينا هنا، هو بيان القياس الذي تفرد به يونس، وارتضاه سيبويه إمام النحاة.

من آراء يونس التي عارضها سيبويه:

2،1 باب الجوازم:

تناول سيبويه باب الجوازم بالتفصيل، وفرع منه أبوابا متعددة، منها هذا الباب الذي ذكر فيه رأي يونس، ووصفه بالقبح، وعنوانه: وهذا باب الجزاء إذا دخلت فيه ألف الاستفهام،[24] وطفق يعرض، ويمثل، ويوضح .. فقال: "وذلك قولك: أإن تأتني آتك، ولا تكتفي بمن لأنها حرف

جزاء، ومتى مثلها، فمن ثم أدخل عليه الألف، تقول: أمتى تشتمني أشتمك، و: أمن يقل ذلك أزره، وذلك لأنك أدخلت الألف على كلام قد عمل بعضه في بعض فلم يغيره، وإنما الألف بمنزلة الواو والفاء، ولا، ونحو ذلك، لا تغير الكلام عن حاله، وليست كـ: إذ، و: هل، وأشباههما، ألا ترى أنها تدخل على المجرور، والمنصوب، والمرفوع، فتدعه على حاله ولا تغيره عن لفظ المستفهم، ألا ترى أنه يقول: مررت بزيد، فتقول: أزيدٍ،[25] وكذلك نقول في الرفع والنصب، وأما يونس فيقول: أإن تأتني آتيك، وهذا قبيح، يكره في الجزاء وإن كان في الاستفهام، وقال عز وجل: (أفإن مت فهم الخالدون) ولو كان ليس موضع جزاء قبح فيه (إن) كما يقبح أن تقول: (أتذكر إذ إن تأتني آتيك) فلو قلت: (إن آتيتني آتيك) على القلب كان حسناً.[26]

نلاحظ أن يونس بن حبيب يخالف الجمهور، ويأتي بقياس منفرد في هذا الباب، فيرى أن جواب الشرط في الجزاء يجوز أن يكون مرفوعا، إذا دخلت همزة الاستفهام على أداة الشرط، كقولك: أإن تأتني آتيك، بإثبات الياء في آتيك، على انه فعل مضارع مرفوع، مع أنه واقع جواب شرط لكلمة إن الشرطية الجازمة، لكنها حينما دخلت عليها ألف الاستفهام جاء الجواب مرفوعاً، وكان حقه أن يكون مجزوماً. ولعل يونس بنى هذا الرأي على سماع من بعض العرب، ولم يصل إلينا هذا السماع، لضياعه فيما ضاع من الآثار المفقودة ليونس بن حبيب، إذ لم يصل إلينا أي أثر من آثاره، مع الأسف الشديد.

ويرى يونس بن حبيب مجيء الحال معرفة بالألف واللام في قوله: مررت به المسكين،[27] لكن سيبويه يرفض هذا الرأي، ويحكم عليه بعدم الجواز، قال في الكتاب: "وزعم الخليل أنه يقول (مررت به المسكين)[28]،على البدل وفيه معنى الترحم، وكان الخليل يقول: إن شئت رفعته من وجهين فقلت: مررت به البائسُ، كأنه لما قال: مررت به قال المسكين هو، كما يقول مبتدئا المسكين هو البائس أنت، وإن شاء قال: مررت به المسكينَ، كما قال: بنا تميما يكشف الضباب،[29] وفيه معنى الترحم. وأما يونس فيقول: (مررت به المسكينَ) على قوله: مررت به مسكينا، وهذا لا يجوز، لأنه لا ينبغي أن يجعله حالا، ويدخل فيه الألف واللام، ولو جاز هذا لجاز: مررت بعبد الله الظريفَ، تريد ظريفا، ولكنك إن شئت حملته على أحسن من هذا، كأنه أضمر عملا، وكأن الذين حملوه على هذا إنما حملوه عليه فرارا من أن يصفوا المضمر، وكان إياه على الفعل أحسن.[30]

ونلاحظ أن هذه المسألة هي من صميم باب الحال، لكنها جاءت عند سيبويه في باب آخر بعنوان (هذا باب ما يجري من الشتم مجرى التعظيم وما أشبهه)،[31] وهي في رأي جمهور النحاة، داخلة تحت هذا العنوان، ولا ضير على سيبويه في ذلك ولا تثريب، إنما الذي جعلها من باب الحال هو إعراب يونس لها حالا، يدلل على ذلك قول سيبويه: "وعلى قوله مررت به مسكينا" ويرى

سيبويه أن إعراب كلمة (المسكين) بالنصب على أنها مفعول لفعل محذوف تقديره: (لقيت) وآية ذلك أنه قال: "ولكنك إن شئت حملته على أحسنَ من هذا، كأنه قال: (لقيت المسكينَ). ولهذا رفض سيبويه رأي يونس فقال: "وهذا لا يجوز لأنه لا ينبغي أن يجعله حالاً ويدخل فيه الألف واللام، لأن القاعدة عند جمهور البصريين أن الحال تكون نكرة، ولا يجوز مجيئها معرفة بحال من الأحوال، وكل ما ورد في ذلك فهو مؤول بالنكرة.[32]

3. بين يونس بن حبيب والخليل بن أحمد الفراهيدي

3،1 نواصب المضارع أو باب (أو) .

عقد سيبويه بابا من أبواب نواصب المضارع بعنوان: هذا باب أو[33] وتحدث فيه عن كثير، ورجح رأي يونس على رأي الخليل، فوصف رأي يونس بالسهولة على حين وصف رأي الخليل بالبعد، وذلك حينما تعرض لإعراب الفعل المضارع الواقع مرفوعا بعد أو، في بيت للأعشى، قال سيبويه: "سألت الخليل عن قول الأعشى:

إن تركبوا فركوب الخليل عادتنا أو تنزلون فإنا معشر نزل[34]

فقال: الكلام هنا على قولك: يكون كذا أو يكون كذا، لما كان موضعها لو قال فيه أتركبون لم ينقص المعنى، صار بنزلة قولك: ولا سابق شيئا. وأما يونس فقال: أرفعه على الابتداء، كأنه قال: أو أنتم نازلون. وعلى هذا الوجه فسر الرفع في الآية،[35] كأنه قال: أو هو يرسل رسولا، كما قال طرفة: أو أنا مغتدي. وقول يونس أسهل، وأما الخليل فجعله بمنزلة قول زهير:

بدا لي أني لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئا إذا كان جائيا[36]

والإشراك على هذا التوهم بعيد كبعد (ولا سابق شيئا) ألا ترى أنه لو كان هذا هكذا لكان في الفاء والواو، وإنما توهم هذا فيما خالف معناه التمثل، يعني مثل (هو يأتينا ويحدثنا) يقول: يدخل عليك نصب هذا على توهم أنك تكلمت بالاسم قبله، يعني مثل قولك: (لا تأته فيشتمك) فتمثيله على (لا يكن منك إتيان فشتيمة) والمعنى على غير ذلك .[37]

ومن الأقيسة التي تفرد بها يونس، وأشاد بها سيبويه في الموازنة بين آراء يونس والخليل، قياس يتعلق بقولهم: (يا قاض) وأمثالها من الأسماء المنقوصة في النداء، ولهذا جعلها سيبويه تحت عنوان: (وهذا باب ما يحذف من أواخر الأسماء في الوقف وهي الياءات).[38] قال سيبويه: "وسألت الخليل عن القاضي في النداء، فقال: أختار (يا قاضي) لأنه ليس بمنون، كما أختار هذا القاضي.

وأما يونس فقال: (يا قاض) وقول يونس أقوى، لأنه لما كان من كلامهم أن يحذفوا في غير النداء أجدر، لأن النداء موضع حذف، يحذفون التنوين ويقولون: (يا صاح) ويا (غلام أقبل).[39] وقريب من هذا ما جاء في شرح الشافية: "إذا كان المنقوص منادى مفرداً نحو: يا قاضي، فاختار الخليل والمبرد إثبات الياء كما في جاءني القاضي، لأنه لا مدخل للتنوين فيها حتى يحذف الياء لتقديره كما حذف في (جاءني قاض) وقفا. واختاره يونس وقوّاه سيبويه حذف الياء لأن المنادى موضوع التخفيف[40]، ومذهب يونس اختيار حذفها نحو (يا قاض)، قال سيبويه: وهو أقوى، لأن النداء محل حذف، ألا تراهم رخموا فيه الأسماء.[41]

3،2 تصغير ما سمي به من الجموع:

اختلف الرأي بين يونس والخليل، فيما سمي به من الجموع، مثل كلمة قبائل، إذا سميت به رجلاً فصغرها يونس على: قبيل، بحذف الهمزة، وصغرها الخليل على قبيئل بالهمزة، واستدل كل منهما بما عنده من قياس، ثم جاء سيبويه ورجح رأي الخليل على رأي يونس، ووصفه بالحسن، فقال: وقول الخليل أحسن، قال: وإذا حقرت رجلا اسمه قبائل قلت قبيئل، وإن شئت قلت: قبيئيل، عوضا مما حذفت، والألف أولى بالطرح من الهمزة، لأنها كلمة حية لم تجيء للمد، وإنما هي بمنزلة جيم مساجد، وهمزة برائل، وهي في ذلك الموضع والمثال، والألف بمنزلة ألف عذافر، وهذا قول الخليل. وأما يونس فيقول: قبيل، بحذف الهمزة إذا كانت زائدة، كما حذفوا ياء: قراسية، وياء عفارية، وقول الخليل أحسن، كما أن عفيريه أحسن.[42] ثم جاء المبرد فذكر في هذا باب ما يسمى به من الجماعة - يقصد الجمع من الأسماء - فإذا سميت رجلا بمساجد، ثم أردت تحقيره قلت: مسيجد، حذفت الألف الزائدة، لأنه لا يُصغر شيئ على خمسة أحرف، فإن عوضت قلت: مسيجيد، فإن سميت بمفاتيح، قلت: مفيتيح، فتحذف الزائدة الثالثة، وتقر الياء، لأنها رابعة في الاسم. فإن سميت: قبائل أو رسائل، قلت: قبيئل ورسيئل، وهذا إجماع النحاة إلا يونس بن حبيب، فإنه كان يقول: قبيّل ورسيّل، وذلك رديء في القياس.[43]

ونلاحظ، أن يونس بن حبيب تفرد بقياس جديد، فأثرى النحو العربي بالقياس الابتكاري، والمذاهب التجديدية، فخالف جميع النحويين، كما يقول المبرد، في تصغير ما سمي به الجموع، وحجة يونس في ذلك، أنه اجتمع في الكلمة حرفان زائدان، وهما الألف اللينة والهمزة، لأن المادة الأصلية للكلمة تتكون من (ق ب ل) ولما كان من الحرفين زائدا فيها، كان حذف الحرف القريب من الطرف وهو الهمزة أولى من حذف غيره لأن الحذف يكثر في الطرف وما كان قريبا منه، وهذا هو القياس.

3،3 تصغير الخماسي:

اختلف الرأي بين يونس والخليل في تصغير الخماسي إذا كان صحيح الرابع، مثل: سفرجل، فرزدق، شمردل ... فقال يونس: تصغر على (سفيرج، فريزد، وشميرد) بحذف الحرف الخامس[44] لأنه في الطرف، والأطراف موضع الحذف والبتر في الكثير الغالب. وقال الخليل: تصغر على (سفيرجل، فريزدق، شميردل) دون حذف، مع أن هذا التصغير لم يرد في اللسان العربي على الإطلاق. ثم جاء سيبويه فرجح رأي الخليل على رأي يونس، ووصفه بالقرب، مع أنه يعلم علم اليقين، أنه لم يرد في اللسان العربي المبين، حيث قال تأييداً لرأي الخليل: "فهذا أقرب وإن لم يكن من كلام العرب".[45]

قال سيبويه: "هذا باب تصغير ما كان على خمسة أحرف ولم يكن رابعه شيئاً مما كان رابع ما ذكرنا، مما كان عدة حروفه خمسة أحرف وذلك نحو: سفرجل، وفرزدق، وشمردل ... فتحقير العرب هذه الأسماء (سفيرج، فريدز، شميرد ..) وإن شئت ألحقت في كل اسم منها ياء قبل آخر حروفه عوضا، وإنما حملهم على هذا أنهم لا يحقرون ما جاوز ثلاثة أحرف إلا على زنته وحاله لو كسروه للجمع، إلا أن نظير حرف اللين الثالث الذي في الجمع: الياءُ في التصغير[46]. وأول التصغير مضموم، وأول الجمع مفتوح، كما ذكرت لك، فالتصغير والجمع بمنزلة واحدة في هذه الأسماء: في حروف اللين، وانكسار الحرف بعد حرف اللين الثالث، وانفتاحه قبل حرف اللين، إلا أن أول التصغير وحرفَ لينه كما ذكرت لك فالتصغير والجمع من واد واحد. وإنما منعهم أن يقولوا (سفيرجل) أنهم لو كسروه لم يقولوا (سفارجل) ولا (فرازدق) ولا (شمارِدل)، وسأبين لك إن شاء الله لِمَ كانت هذه الحروف أولى بالطرح في التصغير من سائر الحروف التي من بنات الخمسة، وهذا رأي يونس. وقال الخليل: لو كنت محقراً هذه الأسماء لا أحذف منها شيئاً كما قال بعض النحويين، لقلت: (سفيرجل) كما ترى حتى يصير بِزِنَةِ دنينير، فهذا أقرب وإن لم يكن من كلام العرب[47].

ومن الواضح أن سيبويه انحاز إلى جانب شيخه الخليل ، فرجّح رأيه على رأي يونس، ووصفه بالقرب حين قال: "فهذا أقرب" و على الرغم من هذا الاختلاف فسيبويه لم يقدم لنا الفصل في المسألة حين قال بعد ترجيحه مثل هذا التصغير لم يكن من كلام العرب. و أكبر الظن أنه لو كان حيا لقال: حكمت بذلك على أساس القياس، لأن الأصل عدم الحذف، وله نظير قسناه عليه وهو قولهم: دنينير. وحينئذ نقول له ما قالت العرب في الأمثال: يداك أوكتا وفوك نفخ، فأنت الذي اعترفت أنه ليس من كلام العرب، فكيف تقف بعد هذا إلى جانبه وتفضله على رأي يونس، ذلك الذي يعتمد على السماع الكثير، كما يعتمد على القياس الناضج؟ أما السماع فقد اعترفت أن العرب تصغر هذه الأسماء على هذه الأوزان حيث قلت: "فتحقير العرب هذه الأسماء: سفيرج،

وفريزد، وشميرد" وأما القياس فقد ذكرت فيما ذكرت أن التصغير والجمع بمنزلة واحدة في هذه الأسماء، وأن التصغير والجمع من واد واحد[48] ومعنى ذلك أنهم قاسوا التصغير على جمع التكسير، وهو قياس قوي، يعتمد على السماع الكثير.

4. مذهب يونس بن حبيب في النحو:

لقد كان يونس بن حبيب من أهم الأعلام المنظرين في النحو العرب، فامتاز عن غيره من النحاة بتفرده بمذهب متميز، ولهذا قالوا عنه قديما: وله أقيسة يتفرد بها[49]، فهو صاحب القياس المبتكر، والأفكار التجديدية في النحو العربي. والمسار الواضح الجلي في مذهبه النحوي هو مسار شخصيته كما ذكرها الرواة و تناقلته كتب التراجم ، فمرجعيته الفكرية ترتكز على أساس قوي من الأصالة أساسها الرواية والسماع ، و مراعاة الوارد من الشواهد بوجه عام. و مع ذلك عارضه النحاة في كثير من الأقيسة التي تفرد بها . فيرى بعض العلماء أن اختلاف المنهج بينه وبين هؤلاء النحاة يعود لاعتماده على السماع و القياس معا، كلما توافرت له الكثرة المعتمدة[50]، وأحياناً كان يونس يقيس على القليل الموثوق به، ولو كان شاهداً وحيداً[51]. من هنا جاء الخلاف بينه وبين النحاة الذين يعتمدون على (تجريد القياس) من أنصار (التيار القياسي) بزعامة عبد الله بن إسحق الحضرمي، وتلميذه: عيسى بن عمر الثقفي، ومن حذا حذوهما من عشاق القياس التجريدي.

وكذلك جاء الخلاف بين يونس من ناحية، وبين أتباع الخليل من ناحية أخرى، وعلى رأسهم الخليل بن أحمد، وتلميذه الوفي سيبويه إمام النحاة، ومعهما جمهرة من النحويين البصريين الذين يعتنقون هذا المذهب القياسي أيضاً، فهو يشترك مع التيار الأول[52] في أن كلاً منهما يصطنع القياس، لكنه يختلف عنهم في استخدام هذا القياس، حيث أنهم يعمدون إلى تجريد القياس، في حين يعمد يونس على تصحيحه، ومن هنا جاء الفرق بين المذهبين[53]. ولما كان يونس يعتمد في مذهبه على الآثار المسموعة ويقيس عليها سمينا هذا المذهب بالتيار المنهجي، ذلك أنه يعتمد على طبيعة اللغة نفسها أكثر مما يعتمد على تحكم القياس[54] ومن هنا جاء الخلاف بين التيار المنهجي من جهة وبين التيارين الآخرين من جهة أخرى وهما: التيار القياسي، وتيار أتباع الخليل.

والظاهر أن يونس تفرد بهذه الأقيسة مع أنه يشترك مع أستاذه أبي عمرو بن العلاء في زعامة التيار المنهجي ويقيس إذا ما توافرت الكثرة المعتمدة للقياس ، ولهذا اعتُبر من زعماء التيار المنهجي الذي يقيس على الكثير. غير أن يونس انفرد بالقياس على القليل المسموع ما دام موثوقاً به،

ولو كان شاهداً وحيداً، ومن هنا جاءت الأقيسة المتفردة، تلك التي عناها القدماء في قولتهم المشهورة، وسميناها هنا بالقياس المبتكر. وهناك فرق آخر بين مذهب يونس من ناحية، وبين مذهب أستاذه أبي عمرو بن العلاء من ناحية أخرى، مع أنهما من واد واحد، وهو التيار المنهجي ذلك أن أبا عمرو كان يعتمد الوارد من الشواهد في العصر الجاهلي فقط، أما يونس بن حبيب فقد اعتمد الوارد من الشواهد في جميع العصور، فلم يفرق بين العصر الجاهلي والعصر الإسلامي مثلاً، قال الأصمعي: "جلست إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج فلم أسمعه يحتج ببيت إسلامي"[55] ولئن كان أبو عمرو بن العلاء هو الزعيم الأول للتيار المنهجي، وقد ضيق فترة الاستشهاد بالشعر العربي، فإن يونس بن حبيب وهو الزعيم الثاني لهذا المنهج، قد أكمل هذا النقص، فاعتمد الشعر الإسلامي، واستشهد به في كثير من المواطن، وكأنه استشعر هذا النقص من أستاذه أبي عمرو بن العلاء، فقال معتذراً عنه في إكبار وإجلال: " لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيء واحد لكن ينبغي لقول أبي عمرو أن يؤخذ كله، ولكن ما من أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك"[56].

وعلى الرغم من أن يونس وأبا عمرو ينهلان من تيار واحد مع أنهما يختلفان في المذهب فذلك الاختلاف شيء محبب والاشتراك شيء محبب كذلك، فإذا ما وجدنا هذه الظاهرة أو تلك فلا ينبغي أن ننظر إليها نظرة سطحية، وإنما الواجب أن نتعمق في الأمور ونتفحصها بدقة ويقظة واعية، ثم نستنتج ونستنبط، وندون ما نقف عليه من نتائج، وشبيه بهذا الاشتراك والاختلاف ما نجده بين المدارس النحوية نفسها، فالمدرسة الكوفية مثلا تختلف مع المدرسة البصرية، وتشترك معها في كل مدرسة وأخرى حدود وفواصل مانعة، بل هناك قدر مشترك بين الجميع، وهذا الاشتراك لا يتنافى بين التميز والتشخيص، فالمدارس النحوية لها قدر مشترك بين الجميع، ثم لكل مدرسة خصائصها التي تميزها عن الأخرى، وفي هذا التشبيه رد على من أنكروا المدرسة الكوفية أو المدارس النحوية بوجه عام، زاعمين أن اشتراك المدارس في بعض الخصائص يفسد عليهم قضية التشخيص[57].

إن اعتبار يونس بن حبيب من الرواد الذين يعتمدون على السماع، مع أنه مشهور بالأقيسة، سببه أن القياس يختلف في مظاهره المتعددة، وكلمة القياس حائرة بين البصريين والكوفيين، فتارة ينسبون المدرسة البصرية إلى القياس، وأخرى نراهم يعكسون، فأي قياس يريدون[58]. وهل يتنافى إثبات القياس للكوفيين مع إثباته للبصريين؟؟ إن من أثبت القياس للكوفيين نظر إلى أنهم يقيسون على الشاهد الواحد، يسمعونه فيتخذونه أساساً للقياس، ولا ريب أن مؤدى ذلك إنما هو التوسع في القياس على كل ما ورد عن العرب مهما كان مخالفاً للقاعدة العامة التي

وضعوها بأنفسهم من قبل، ومن هذه الزاوية جعلوا الكوفيين أصحاب قياس. ومن نفاه عنهم رأى أن قياسهم تنقصه أهم خصائص القياس المنطقي، وفي هذا يقول قائل: "فالقياس الكوفي ينقصه أهم خصائص القياس البصري، وهو اقتضاء العلة للحكم.

الخاتمة :

وخلاصة ما نثبت في الدراسة من خلال ما توافر من مصنفات نقلت آراءه النحوية أن يونس تفرد كثيرا عن غيره من أقرانه في قضايا مهمة في الفكر اللغوي ، فقد كان علما من أعلام علم النحو منذ نشأته الأولى. لذا لاحظنا أن يونس بن حبيب يتفق مع العلماء تارة ، ويختلف تارة أخرى من غير تقليد لأي شيخ أو اتباع لأحد ، مما جعلنا نستنتج أن ثمة عقلاً خلاقاً يبتكر ويطور ويفكر بإبداع، وأن ثمة منهجاً يختبئ وراء هذه التنوعات الفكرية، حيث تكشف بصورة جلية أن يونس رأس من رؤوس التيار المنهجي القائم على السماع أكثر من القياس.

هوامش

[1] - انظر: ابن خلكان أحمد بن محمد : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ت: إحسان عباس،(بيروت:دار صادر)، ج547/3.

[2] - محمد بن إسحق ابن النديم، الفهرست،بيروت: دار المعرفة، ص63.

[3] - انظر: أبو الطيب علي بن عبد الواحد اللغوي، مراتب النحويين، ت: محمد أبي الفضل إبراهيم، (القاهرة:مكتبة النهضة، 1955)، ص21.
والزبيدي،أبو بكر محمد بن الحسن ، طبقات النحويين واللغويين، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة:دار المعارف، 1984م)، ص48.

[4] - انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج548/3 .

[5] - انظر:الأنصاري، أحمد مكي، يونس البصري، حياته وآثاره وماهية،(الخرطوم :مطبعة جامعة القاهرة)، 1973م، ص20.

[6] - الزبيدي: أبو بكر، طبقات النحويين واللغويين، ص48. وأبو الطيب،علي بن عبدالواحد اللغوي، مراتب النحويين، ص21.

[7] - انظر : أبو سعيد السيرافي، أخبار النحويين البصريين ط1، تحقيق: طه محمد الزيني، ومحمد عبد المنعم خفاجي،(مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، 1955م) ص42 وما بعدها.

[8] - انظر: ابن النديم، محمد بن اسحق، الفهرست، ص63.

[9] - انظر : ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص545. وانظر: أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص21.

[10] - الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله،، معجم البلدان، (بيروت:دار صادر، 1399ه) ج20/2-67 .

[11] - انظر : انظر: ابن النديم، محمد بن اسحق، الفهرست، ص63.

[12] - انظر : بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة، عبد الحليم النجار، ج2، ص130، طبعة دار المعارف.
[13] - سيبويه، عمرو بن عثمان،الكتاب ط3،تحقيق: عبد السلام هارون،(القاهرة : الخانجي ،1988م)، ج412/1.
[14] - سيبويه، عمرو بن عثمان،الكتاب،ج410/1.
[15] - يجزم الفعل: أكرمك.
[16] - برفع المضارع: أفعل.
[17] - برفع المضارع: أفعل.
[18] - سيبويه، عمرو بن عثمان،الكتاب،ج132/2.
[19] - المرجع السابق،ج132/2.
[20] - المرجع السابق،ج149/2.
[21] - الأعشى،ميمون بن قيس،ديوان الأعشى الكبير،شرح و تعليق:محمد حسين (مكتبة الآداب بالجماميزت)،ص15 .
[22] - المرجع السابق،ج151/2.
[23] - في قوله: لأنك تعرض.
[24] - المرجع السابق،ج443/1.
[25] - بجر زيد، على الحكاية دون تغيير.
[26] - المرجع السابق،ج444/1.
[27] - ينصب المسكين على الحالية عند يونس.
[28] - يجر المسكين على البدل من الضمير في (به).
[29] - القائل روبة بن العجاج، والشاهد فيه نصب (تميم) بإضمار فعل على معنى الاختصاص والفخر، انظر: هامش الكتاب، ج1، ص255.
[30] - سيبويه، عمرو بن عثمان،الكتاب،ج255/1 و مابعدها .
[31] - المرجع السابق،ج252/1.
[32] - المرجع السابق،ج76/2
[33] - انظر : المرجع السابق،ج427/1
[34] - الأعشى،ميمون بن قيس،ديوان الأعشى الكبير،ص63 .
[35] - يريد قوله تعالى: "وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا" برفع يرسل.
[36] - زهير بن أبي سلمى،ديوان زهير بن أبي سلمى ط1. شرحه وقدم له: علي حسن فاعور(بيروت:الكتب العلمية،1988م)،ص140 .
[37] - سيبويه، عمرو بن عثمان،الكتاب،ج429/1.
[38] - المرجع السابق،ج288/2 .
[39] - المرجع السابق،ج289/2 .
[40] - انظر: الرضى الأستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب، ت: محمد زفزاف(مطبعة حجازي)،ج301/2 .
[41] - انظر: السيوطي، جلال الدين، همع الهوامع شرح جمع الجوامع، ت: عبد العال سالم(دار البحوث العلمية)، ج205/2 .
[42] - انظر: سيبويه، عمرو بن عثمان،الكتاب، ج117/2.
[43] - انظر:المبرد، أبو العباس، المقتضب، ت: محمد عبد الخالق عضيمة،(المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية)، ج2، ص286.

[44] - في حال الحذف، من الجائز أن نعوض حرف لين قبل الآخر
[45] - سيبويه، عمرو بن عثمان،الكتاب، ج318/3
[46] - انظر:المرجع السابق، ج417/3 .
[47] - انظر: المرجع السابق، ج418/3.
[48] - انظر: المرجع السابق،ج106/2 .
[49] - انظر: الزبيدي: أبو بكر، طبقات النحويين واللغويين، ص48
[50] - انظر: أحمد مكي الأنصاري، الموازنة بين المناهج البصرية، حوليات كلية الآداب، 1962، ص44.
[51] - انظر: آرائه النحوية في البحث.
[52] - المراد به: التيار القياسي، بزعامة الحضرمي والثقفي، أما التيار الخليلي: فهو بزعامة الخليل وسيبويه، ومعلوم أن التيارين يشتركان في اصطناع القياس وإن اختلفا في استخدام هذا القياس.
[53] - انظر : أحمد مكي الأنصاري، الموازنة بين المناهج البصرية، ص58.
[54] - انظر: أحمد مكي الأنصاري، الموازنة بين المناهج البصرية، ص65.
[55] - الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، ج1، ص321.
[56] - الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص28.
[57] - انظر : أحمد مكي الأنصاري، أبو زكريا الفراء، دار المعارف، مصر، ص263.
[58] - انظر : أحمد مكي الأنصاري، أبو زكريا الفراء، دار المعارف، مصر، ص30.

قائمة المصادر والمراجع

1. أبو الطيب علي بن عبد الواحد اللغوي، مراتب النحويين، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، نشر مكتبة النهضة، القاهرة، 1955.
2. أبو العباس المبرد، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، دون تاريخ.
3. أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، القاهرة (1404 هـ - 1984م).
4. أبو سعيد السيرافي، أخبار النحويين البصريين، تحقيق: طه محمد الزيني، ومحمد عبد المنعم خفاجي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الأولى، 1955م.
5. أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

6. أحمد مكي الأنصاري :
- أبو زكريا الفراء، دار المعارف، مصر.
- الموازنة بين المناهج البصرية، حوليا كلية الآداب، 1962.
- يونس البصري، حياته وآثاره وماهية، مطبوعات جامعة القاهرة بالخرطوم، 1973م.
7. بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة، عبد الحليم النجار، طبعة دار المعارف.
8. الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون،مكتبتة الخانجي،ط7، 1998 .
9. الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله،، معجم البلدان، دار صادر بيروت، 1399هـ.
10. خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1986.
11. ديوان الأعشى،ميمون بن قيس الكبير،شرح و تعليق:محمد حسين (مكتبة الآداب بالجماميزت) .
12. ديوان زهير بن أبي سلمى ط1. شرحه وقدم له: علي حسن فاعور(بيروت:الكتب العلمية،1988م).
13. الرضى الأستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب، ت: مجموعة من الأساتذة ، مطبعة حجازي .
14. سيبويه، عمرو بن عثمان،الكتاب ط3،تحقيق: عبد السلام هارون،(القاهرة : الخانجي ، 1988).
15. السيوطي: جلال الدين
- همع الهوامع شرح جمع الجوامع، تحقيق: عبد العال سالم، دار البحوث العلمية.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، 1384هـ.
16. محمد بن إسحق بن النديم، الفهرست، نشرته دار المعرفة، بيروت.